العرب
الأحد 2019/12/01
السنة 42 العدد 11545

حينما تصير الكتابة قارب نجاة

لم أخطط يومًا أن أصبح كاتبًا، ولم أسع حتىٰ إلىٰ أن أكون قارئًا متميزًا. حينما قرأت مصادفة الكتاب الأول في حياتي "البؤساء" لفيكتور هوغو شعرت بأن ثمة حالة من النجاة أو لنقل العزاء من حالة البؤس التي كنا نعيشها في القرية. وكان لهوغو –بالطبع– تلك القدرة المتفردة بأن جعلني أفهم قريتي عبر عوالم المدينة، فأجد متكئي فيما كتب. لم أكن أعي أن هذه إحدى أدوات البراعة في الكتابة. أشبّه ذلك الأمر في تلك الأيام بمن ظل يعاني وجعًا مبرحًا وعلىٰ نحو مفاجئ وجد عقارًا يسكن هذا الألم لوقت قصير، فهرعت إلىٰ المكتبة العامة في "مادبا" وحصلت علىٰ بطاقة تؤهلني لاستعارة الكتب لأجدُني واحدًا من مدمني القراءة. ليس عيبًا أن أعترف أنني كنت في تلك الأيام أمارس التهام الكتب بنَفسٍ مدمن يود الخلاص من شيء يؤرقه.

جلال برجس
شاعر وروائي أردني

مع الأيام أخذت أشعر بأن متعة ما تتحقق لي غير تمزيق صور بائسة تلوح في مخيلتي خلال القراءة كأداة مُجابهة؛ إنها متعة التحليق. لكن هذا التحليق أخذني إلىٰ مرتقىٰ يطل علىٰ سماء أخرى ما كان عليّ بلوغها إلا انطلاقًا من رأس الصفحة البيضاء وعبر القلم كأنه مكوك فضائي سريع الانطلاق.

وحينما كتبت أخذت دون أن أعي أكتبني؛ إذ كنت قد اشتريت دفترًا ورحت عند نهاية كل يوم أدون ما رأيت وما سمعت وما حدث لي خلال اليوم. أكتب بجرأة متيقن أن ما من أحد سوف يقرأ ما أكتب من اعترافات. أكتب أسراري، رغباتي، شكوكي، رأيي بأبي، بشيخ المسجد، بمدير المدرسة، وبكل الظروف التي منعتني من دراسة الطب في أوروبا، وأخيرًا بمسؤول المعهد العسكري الذي درست به هندسة الطيران والنجوم تتكاثر علىٰ كتفيه كأنه يمجد فكرة الليل الذي أميل إلىٰ سكونه ومقدرته علىٰ أن يعزلني عما يزعجني في النهار.

حينما حملتني الطائرة العسكرية إلىٰ الصحراء الأردنية الشرقية ليلة 13–1990–12، وحلقت بي علىٰ علو شاهق فوق المطار، الذي لم أكن أدري أني سأمكث فيه ستة عشر عامًا تساءلت بسخرية "هل هذه البقعة الرمادية هي المكان الذي سأنام فيه هذه الليلة؟".

كان الوقت يتكاثر بشراهة وهو يقتاد نوعًا غريبا من الحزن ويدسهما في روحي. بقيت في اليوم الأول أراقب سقف الثكنة التي خصص مكان فيها لسريري ولصندوق معدني أضع فيه أغراضي. كان عليّ أن أحمل معي ولو صفحة من جريدة. هكذا كنت ألوم نفسي أمام ما أحس به.

> صارت الكتابة عندي عادة يومية جنبًا إلى جنب مع القراءة، وصارت لي غرفتي الخاصة في عملي وعزلة أستمتع بها؛ الأمر الذي جعلني أواظب على الكتابة اليومية

وكان الجنود يغطون بنوم عميق. لا صوت إلا صوت شخير بعضهم، وصوت تكات عقارب ساعة يدي وقد تجاوزت الثانية عشرة منتصف الليل بدقيقة فأوغلنا في عام جديد. كانت الريح خارج الثكنة تتحرك علىٰ نحو أثار الوحشة بي بعدما أنفقت ساعات من مهادنتها إلىٰ أن غفت وهي تعدني بالعودة. حينها ألحّت عليّ الكتابة كمن يحتاج الماء في نهار صحراوي تموزي فكتبت مستعينًا بمسمار علىٰ الجدار "الريح خارج غرفتي تعوي كطفل أضاع الجهات وأقعىٰ ينتحب"، ثم نمت. لم أتأمل ما حدث ليلتها؛ لماذا كتبت؟ ولماذا شعرت بشيء من الراحة فنمت.

في تلك الايام كانت محطات التلفزة والإذاعات العربية والعالمية لا تتوقف عن الحديث عن قصف جوي وشيك ضد العراق تحت اسم "عاصفة الصحراء". في الصباح وحينما يممنا شطر عملنا كان معظم زملائي يحملون راديو ترانزستور صغير صنع في العراق مكتوب عليه بالعربية "القيثارة"، وينصتون للأنباء بكل ترقب. كانت مشاعري أيامها مزدوجة؛ حزين علىٰ اجتياح الكويت، وحزين علىٰ ما سوف تفعله قوات التحالف بالعراق وما يمكن أن تسفر عنه مستقبلًا كل تلك الأحداث. تدبّرت أمري وحصلت علىٰ دفتر وأقلام لأعود لكتابة يومياتي لكنني وجدتُني أكتب شعرًا. أكتب وأخبئ الأوراق كأنني أدون يومياتي التي عليّ أن أداريها عن الناس.

في 17 كانون الثاني من ذلك العام بدأت حرب الخليج بقصف جوي ضد العراق من قبل قوات التحالف في "عملية عاصفة الصحراء. أيامها كنا لا ننام إلا ساعات قليلة وكل منا يلتزم موقعه في عمله. كان في جيبي راديو "القيثارة" الذي استعرته من زميلي، وفي جيبي الأخرى قلم وعدد قليل من الأوراق كل ما وجدت قليلاً من الدقائق أكتب وأنا أقاوم المشاهد التي تمدّها لي يد الذاكرة من بلدين عربيين طالهما الوجع. وكلما سمعت نبأ عبر الراديو أتذكر مقولة تيسير سبول "هل نحن حشية قش يتدربون عليها؟".

مرت السنون كما تمرّ سكين مهترئة بجسد فتي، وصارت الكتابة عندي عادة يومية جنبًا إلىٰ جنب مع القراءة، وصارت لي غرفتي الخاصة في عملي وعزلة أستمتع بها؛ الأمر الذي جعلني أواظب علىٰ الكتابة اليومية. في تلك الأيام كنت قد زرت معتقل الجفر الصحراوي الذي أغلقته الدولة عام 2005 وُوجه إلىٰ أن يكون مدرسة مهنية. كانت مشاعري متداخلة بشكل غريب؛ إذ أن والدي كان أحد حراس المعتقل، وعدد من أبناء مادبا معتقلون فيه. ثمة جندي هناك أعرفه أخذني في جولة في زنازين المعتقل. كنت وأنا أمشي نحو الزنازين أنظر تارة إلىٰ البرج المخصص للحراسة وصورة أبي تجتاح مخيلتي، وأنظر إلىٰ الزنازين تارة أخرى في يوم كانت الريح فيها تنوح وتثير بي الوحشة من جديد. في المساء عكفت علىٰ الكتابة بنهم غريب كأنني محموم، دون أن أدري أنني أكتب رواية في نهاية فصلها الأول نهضت وسألت نفسي وأنا أراقب الأوراق عن بعد كان أحدًا يتنبه فجأة لخطيئة أوغل فيها منذ زمن: لماذا أكتب؟

في صيف عام 2007 انتهىٰ عملي في الصحراء، وأصبحت مواطنًا بالصبغة المدنية دون أن أدري حينها أنني أحمل الصحراء التي أحببت ليلها معي، وأنني كتبت شعرًا عبر كل تلك السنين عن الأيائل والماء والاخضرار والنساء الجميلات رفضًا للقحط. بعد مدة حينما تفقدت أغراضي التي حملتها معي وجدت مخطوطات شعرية وقصصية ومقالات، وفصلا من رواية لم تنشر. فسألت نفسي من جديد عندما فكرت بالنشر: لماذا أكتب؟

هل أكتب لأرمم جبين العالم مما سقط عليه من قذائف الحروب؟ هل أكتب لأعزي امرأة وحيدة في ليلة شتاء باردة؟ هل أكتب ليشار إليّ بالبنان، ولأحظىٰ بعشيقات يشاركنني سرير الحرمان ولأطعم جسدي امرأة تصبر علىٰ رجل يعاني جوعًا مزمنًا لنساء خلقن من نار؟

في الحقيقة –وهذا اعتراف– أنني أكتشف في ذلك العام أني أمضيت سنين في الكتابة لأردم هوة ما في روحي. اكتشفت أنني أكتب لنفسي حتىٰ لو كتبت عن عشبة علىٰ كوكب لم يكتشف بعد. لقد كانت كتابة ذاتية دفعتني للنشر كأنني لا أرى ضيرًا من أن أشج صدري وأُري الناس ما فيه. وتوالت الكتابة والنشر دون أن أسمي نفسي كاتبًا. أضحك في دواخلي عندما يصافحني قارئ وينادني "أستاذ". قارئ لا يعرف أنني إن تخليت عن الكتابة سأمشي أعرج، ذلك العرج الذي لا يراه أحد غيري. وبالفعل حدث لي أن عجزت عن القراءة والكتابة لثلاثة أعوام متتالية لسبب أجهله؛ تلك الحالة التي جعلتني أشعر بمشارفتي علىٰ النهاية إلىٰ أن صحوت ذات ليلة وجلست وراء طاولتي وبقيت أكتب حتىٰ الصباح كأن أحدًا ورائي يمسك بكتفي وهو يهمس لي "عليك أن تعيش".

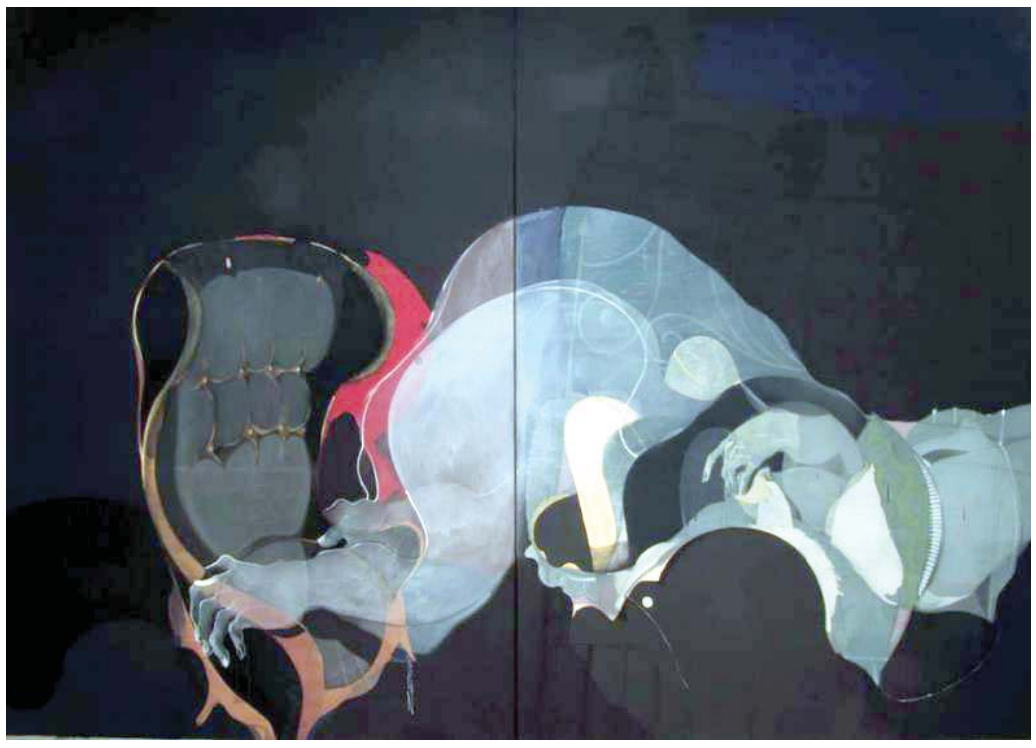

لوحة محمد ظاظا

التخطيط المسبق لكتابة رواية

وجدي الأهدل
روائي يمني

التخطيط الجيد يساعد المبدع علىٰ الكتابة وفقاً لجدول زمني محدد، وأيضاً إيجاد الوقت اللازم لمراجعة النص وتجويده قبل النشر. في حالة كتابة رواية علىٰ سبيل المثال، فإن كاتبها سيحتاج إلىٰ فترة طويلة نسبياً من التحضير قبل الشروع في كتابة السطر الأول منها. التحضير الجيد المتأني سوف يساعد الروائي علىٰ إتمام روايته. أيضاً لا بد أن تكون حبكة الرواية علىٰ الأقل واضحة في ذهن الروائي، لكي يتمكّن من رسم مسار صحيح درامياً لأحداث روايته، والإمساك بزمام المنطق الروائي من الصفحة الأولىٰ وحتىٰ الصفحة الأخيرة. إذا أنت جالست أحداً ولاحظت أن كلامه مفكك ويفتقر للمنطق، فإنك ستشرد بذهنك بعيداً. لقد التقيت بالعديد من الأصدقاء الذين انغمسوا في كتابة عملهم الروائي الأول، ولكنهم لم يتمكنوا من المتابعة. وأظن أن السبب يعود إلىٰ أنهم عندما شرعوا في الكتابة كانت البداية واضحة في أذهانهم، لكن بعد مسافة من الترحال في مملكة الخيال، ربما بعد كتابة 40 أو 60 صفحة يشعرون بفقدان الاتجاه. هذا يشبه انطلاق سفينة من ميناء معين لكن دون وجهة محددة. سوف تمخر عباب البحر لكنها لن تصل إلىٰ أيّ مكان. يحتاج العمل الروائي إلىٰ أن تكون النهاية واضحة في ذهن المؤلف، إلا إذا كان مرتاحاً لنهاية مفتعلة، أو قفلة تقليدية منقولة مثل قالب جاهز.

أحد أسوأ أشكال كتابة الرواية هو استخدامها كوسيلة مواصلات لنقل أطروحاتنا إلىٰ الجمهور. تصبح الرواية بيد البعض مجرد "دابة" تحمل أفكار المؤلف، وهو يسوقها بالعصا ليبيع حمولته في الأسواق. هكذا يبدو لي الأدب الذي يتبع خطة أيديولوجية واضحة المقاصد. قد يحسب البعض أن "الرسالة" التي تتضمنها الرواية كافية للحديث عن معمار روائي ما، لكن هذه مغالطة، لأن المعمار الروائي لا يدخل في حسابه المحتوى. ومهما كانت الرسائل التي يتضمنها المحتوى سامية ونبيلة، فإن ذلك لا يشكل وزناً يُضاف إلىٰ القيمة الفنية للرواية. وكمثال فإن معظم ما أُنتج من روايات تندرج تحت مسمىٰ "الواقعية الاشتراكية" تعاني من التكرار واستنساخ المعمار الروائي. وهذا يذكرنا أيضاً بالعمارة الستالينية، حيث أنشئت المدن السكنية والمباني الحكومية بطراز جاف متماثل، ولم يكن للمهندسين المعماريين مجال لإطلاق العنان لخيالهم، وسميت هذه المرحلة من تاريخ العمارة في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية بـ"الواقعية الاجتماعية".

وإذا أردنا أن نتحرى الدقة، فإن 99 بالمئة من الروايات التي تُنشر في بلداننا العربية تعاني من هذه المعضلة، أي صدور روايات متشابهة تذكّر علىٰ نحو ما بنمط العمارة الستالينية الجامدة. يمكننا أن نلتمس العذر لبناة الحوائط والسقوف لأن هدفهم نفعي، أي تلبية حاجة الإنسان للسكن، لكن بالنسبة إلىٰ الروائي ما هو عذره الذي يعتذر به؟! إذا هو ضحىٰ بالجانب الجمالي –وهو هنا المعمار الروائي– والفني لأجل أن يقدم لنا منفعة معنوية، فائدة تثقيفية، فإنه في واقع الحال لا يصلح لكتابة الرواية، ولكن لكتابة المقالة. والمقالة، كما نعلم، تزيح جانباً كل غرض جمالي، وتهتم أولاً وأخيراً بالوضوح والبساطة وحسن العرض لتوصيل منفعة معينة للقارئ. فلا أحد مثلاً سيفكّر في قراءة مقالة لغرض المتعة أو إشباع غريزة الجمال.

بالنسبة إلىٰ الشاعر يمكنه الاتكال علىٰ ومضة الإلهام، والاستسلام تماماً لمزاجه الشعري، ومن ثم يمكنه التقدم في مشروعه الإبداعي دون أن تمس الحاجة إلىٰ التخطيط المسبق، وابتكار معمار خاص يتم التحضير له بتؤدة.

لوحة محمد ظاظا

الكتابة بوصفها سؤالا في المصير الإنساني

رسول محمد رسول
كاتب عراقي

الكتابة هي وجود يخلقه الإنسان في داخله ليكون إنساناً. كان الإنسان القديم، وقبل أن يعرف التدوين، يقول الكتابة صوتاً؛ فهو يكتب صوته في الفضاء الذي يعيش في كنفه شأنه شأن غيره، وإن لم يستخدم اللسان بوصفه عضو الكلام فالصوت يبقىٰ خبيئاً في وجدانه، لكن الإنسان اخترع التدوين الكتابي، وراح يتوافر علىٰ أدوات الكتابة الخطية، فأستخدم كينونة الطين، ووصلات جلود الحيوانات، ومن ثم الأوراق والأقلام والأحبار، وكان الجدار الطيني أو الرملي أو الصخري أو المعدني أو الشجري، مثلاً، هو الصفحة التي يخط الإنسان عليها حروف الكلام المكتوب والمدوّن عليها، لكن التطوّر الحضاري للإنسان الذي نهض به لنفسه اخترع من الجلود الحيوانية وألواح الأخشاب والقصب والليف وغيرها من الأشياء صفائح حتىٰ أصبحت سهلة التداول والتنقل.

وهكذا، أصبح للمكتوب والمدوّن وجود حسيّ يُشار إليه بالبنان، وكان كل ذلك، وعبر التاريخ، عرضة للحرق والغرق والتلف والإتلاف والفقدان والضياع والتضييع، ولكن ما وصل إلينا من كل المكتوبات تدويناً هو حصة للقدر شاء أن يبقىٰ متوارثاً حتىٰ جاءت الأزمنة الحديثة، ومن ثم المعاصرة، وصار الفضاء الأزرق الإلكتروني جداراً وصفحة للكتابة، وهكذا بقيت الكتابة سواء في شكلها القديم أو الحديث أو المعاصر وجوداً مخلوقاً من جانب الإنسان للإنسان ولغيره من الموجودات القارئة.

في خلال كل ذلك، لا تنفصل الكتابة عن الإنسان في كل تفاصيل حياته؛ الذهنية والحسية، والنقدية بالمعنىٰ الكانطي –نسبة إلىٰ الفيلسوف إيمانويل كانط– والقلبية بالمعنىٰ الصوفي والأهوائية.

تغطي الكتابة جُل وجود الإنسان، الداخلي والخارجي، الذاتي والموضوعي، وفي كل ذلك تتبلور –الكتابة– تعبيراً ودفاعاً عن الوجود الذاتي للإنسان سواء كان فرداً أو مجموعاً، وهنا تبدو قضية المصير، مصير الإنسان، ذات شأن محوري، وعندما يكون المصير الإنساني بهذا الشأن سيولّد الاختلاف، وقد يؤدي هذا الاختلاف إلىٰ التصادم، وهو ما جرى بالفعل، وعند ذاك تصبح الكتابة فعل تحدّ وفعل مصير، ولذا تجد الأنظمة التي لا تؤمن بالديمقراطية الحقيقية أنها تخنق الكتابة، تخنقها بوصفها وجوداً إنسانياً لكي تهزمها وتهزم الكاتب والمكتوب، وتقمع الكاتب وتعتقله لترميه في السجن، وقد تنزل به عقوبة الإعدام الذي هو ضمناً إعدام للكتابة، إنه الإعدام لوجود الكاتب.

لا كتابة من دون إنسان، والكتابة التي لا تناغي المصير الإنساني تبقىٰ عابرة، تبقىٰ كتابة للتدوين الاستهلاكي ليس إلا، وهنا بيت القصيد، فما جدوى الكتابة؟ وما جدواك أنتَ أيها الكاتب بوصفك وجوداً إنسانياً بأنْ لا تأخذ الكتابة منك مأخذها المصيري فيك ليس بوصفك فرداً فحسب وإنما بوصفك الفرد المجموع كأن تكون وطناً فرداً في وطن بقية الأفراد؟

لذلك، أجد أن سؤال الكتابة الأول هو سؤال مصير الإنسان في المجموع الإنساني ضمن وطن ما، وعندما تفضل الكتابة عندك مصير جهوياتك علىٰ غيرها؛ جهوياتك القبيلة والمذهبية والمنطقية، والرعاعية الهوجاء فيك، إنما تُفضّل كل ذلك علىٰ بُعدك الإنساني الأصل أو البُعد الإنسي فيك سرعان ما ستتحوّل الكتابة إلىٰ مجرّد صناعة لوجود غفل، وجود للاستهلاك ليس إلا، وهي بذلك كتابة مغتربة عن أن تكون حقّة.

إن سؤال الكتابة الحقيقي لهو سؤال الإنسان بوصفه إنساناً؛ فالكتابة التي تبحث عن مجرّد العرق ومجرّد الطائفة ومجرّد القبيلة ومجرّد المنطقة هي كتابة تنزل إلىٰ درك هذه العناصر الجهويّة تلك التي لا تحتفي بالإنسان بوصفه إنساناً وهو ما ينبغي لوجود الكتابة أن يكونه.

ولذلك، يسعىٰ التفكير الأيديولوجي والأيديولوجي المعاصر سواء في شكلهما الإسلامي أو الإسلاموي أو غيرهما، وفي كل زمان، أن يُبعد الكتابة الحقّة عن خطاباته، إنما يريد بهذا التفكير أن تكون الكتابة مجرّد تعبير عن الطائفة والعرق والمنطقة، وكذلك عن المصالح السياسية الإقليمية والاقتصادية، إنه يسعىٰ لأن تكون الكتابة رعاعيّة جهويّة لا إنسانية.

أن الكتابة التي تتكرّس في داخل البُعد الجمالي فحسب، لا بد أن تغادر منطقة الكتابة من أجل الكتابة رغم أن الكتابة في هذا المجال لها مبرّراتها في أطر معينة وهي أطر ضيقة، علىٰ العكس من ذلك لا بدّ لسؤال الكتابة أن يضع في صلبه مصيرية الإنسان في هذا العالم الذي تمور فيه شتىٰ الصراعات العمياء والدموية.

> لا كتابة من دون إنسان، والكتابة التي لا تناغي المصير الإنساني تبقى عابرة، تبقى كتابة للتدوين الاستهلاكي ليس إلا